

## اليهود

يحرقهم ما يحدث حولهم، ويموتون كل يوم بغيظهم.. إنهم يشرقون بهذا النبي  
ويمن معه.. مع أنه كان يتقرب إليهم.. كان يحب هدايتهم، فهم كغيرهم يحتاجون إلى  
من يأخذ بأيديهم إلى الحق، بل كان ﷺ يشعرهم بأنهم أقرب من غيرهم إلى الإسلام  
- ومع أن القرب لا يكفي أبداً - فقد كان ﷺ يشعرهم بذلك..

وكان (يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء)<sup>(١)</sup> ف (كان أهل الكتاب  
يسدلون شعورهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته)<sup>(٢)</sup>.

لكن اليهود لا يريدون استيعاب أي شيء من محمد ﷺ.. إنهم يفضلون البقاء في  
معسكرهم، ولن يغادروه إلا إذا أرسل الله نبياً يهودياً يلتزم بأوراق هذه التوراة الممزقة،  
وكان لليهود تعاليم سلمت من التمزيق أقرها الإسلام ولم ينكرها.. من هذه البقايا:

## قصة صيام يوم عاشوراء

وهو العاشر من شهر محرم (يوم عاشوراء كان يصام في الجاهلية)<sup>(٣)</sup> وأهل  
الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء)<sup>(٤)</sup> ومنهم (قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية،  
وكان رسول الله ﷺ يصومه. فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه)<sup>(٥)</sup>.

وتقول عائشة: (كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان وكان يوماً تستر  
فيه الكعبة)<sup>(٦)</sup> ف (ذكر عند رسول الله ﷺ يوم عاشوراء فقال رسول الله ﷺ: «كان يوماً  
يصومه أهل الجاهلية، فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه، ومن كره فليدع») <sup>(٧)</sup> وليس

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام، صيام عاشوراء (١٢٠).

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٣).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥) ومسلم واللفظ له، الصيام (١١٨).

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٥٧٨-٢.

(٧) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٤).

أهل الجاهلية فقط هم من يحتفي بذلك اليوم (إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى)<sup>(١)</sup> وكان يهود خيبر أكثر احتفاءً من غيرهم (هم يصومون يوم عاشوراء، يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم)<sup>(٢)</sup>.

لكن ما علاقة ذلك كله باليهود، وهل كان رسول الله ﷺ مقلداً لأهل الجاهلية وأهل الكتاب؟

دونما تردد الإجابة: لا، فمحمد ﷺ جاء وحيماً.. لا ينطق عن الهوى، ولا يملك أن يشرع من عند نفسه، وإذا كان سياق الحدث فيه موافقة للجاهلية ولليهود، فهؤلاء القوم كالغريق بين الأمواج.. مرةً يتنفس هواءً كالحياء، ومرةً يتنفس ماءً، أما الثالثة فيتنفس فيها موتاً.

ومحمد ﷺ كان يتنفس هواءً نقياً، ويتفوه وحيماً وعطراً.

استغرب رسول الله ﷺ صيام اليهود لذلك اليوم، فكانت هذه القصة التي سجلت كم كان ﷺ ودوداً.. كم كان محباً لإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكم كان محباً لنبي اليهود موسى عليه الصلاة والسلام، فلقد (قدم ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه.

فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه)<sup>(٣)</sup> لأن الله أمر بصيامه.. لا لأن يهوداً صاموه، فالمسألة هنا مختلفة، وليست كالحالة الأولى -حالة فرق الشعر وتسريحه - فالصوم عبادة، وأي عبادة كانت فهي محرمة في الإسلام، إلا إذا جاء دليل من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ يأمر بها أو يحث عليها، وهكذا يبقى الإسلام العبادة جديدةً صافيةً تستقى من النبع، لا

(١) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٩).

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٦).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (الصوم ١٣٤).

من ترسبات التاريخ والأهواء والفلسفات، وهذا ما أغاظ اليهود، وجعلهم من ثقوب حصونهم يترقبون، ويتطلعون إلى أي خطأ قد يحدث منه ﷺ، أو من أحد الصحابة، وها هو أحدهم يجد ما يريد:

## يهودي ينتقد المسلمين

فقد سمع هذا الرجل بعض الصحابة يقولون: ما شاء الله وشئت. وبعضهم يقول إذا حلف: والكعبة.

فرح اليهودي بما سمع فأطلق قدميه ولسانه تجاه رسول الله ﷺ منتقداً هذا النوع من الشرك، و(أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تتددون<sup>(١)</sup> وإنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة)<sup>(٢)</sup>.

سمع رسول الله ﷺ هذه الكلمات من اليهودي وتأثر بها، لكنه لم ينفجر في وجهه.. لم يقل له: من أنت حتى تعلمنا ديننا!

لم يقل له: لماذا لا تتصحون أنفسكم أيها اليهود، وأنتم تقولون (عزيز ابن الله)

لم يقل: أنت لست من أهل العلم حتى نستمع إليك.

لم يقل هذا شأن داخلي فيما بيننا، ولا نقبل النقد سوى من جماعتنا الذين هم على ديننا.

لم يتفوه ﷺ بشيء من ذلك، بل ضرب لأتباعه المثل الأعلى في قبول الحق، وأن الحق يقبل من أي شخص كان حتى لو كان عدواً حاقداً، ويضرب المثل الأعلى لتقبل الآخر ونقد الآخر.

استمع ﷺ لهذا النقد اللاذع وقبله، ثم توجه نحو أصحابه بهدوء ودون انفعال مصححاً ذلك الانحراف الخطير و(أمرهم النبي ﷺ إذا أردوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة)<sup>(٣)</sup>.

(١) تجعلون لله نداً ومثيلاً وشبيهاً.

(٢) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

(٣) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

وكررها ﷺ قائلاً لهم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»<sup>(١)</sup> مهما كان فلان هذا. وقال أيضاً: «لا تحلفوا بأبائكم ولا بالطواغيت»<sup>(٢)</sup>.. «لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد. ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»<sup>(٣)</sup>.

وبين خطورة ذلك فقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»<sup>(٤)</sup>

امتثل المسلمون فذهبوا بالأجر، وذهب رسول الله ﷺ بالصحابة والأجر ينسابون كالنور.. كالنهر.. يغسلون تلك الزوايا التي تخشرت فيها بقايا الشرك. وذهب ذلك اليهودي بغيظه يجره، ويجر قدميه الثقيلتين ورأسه المتحجر، فلقد انتفع المسلمون بالحق والنقد، ولم ينتفع هو بشيء، بل أضاف إلى رصيد اليهود عناداً آخر.. أضاف مساحةً بينهم وبين المسلمين.

اتضح تلك المسافة، وبانت تلك المفارقة عندما كان رسول الله ﷺ مهموماً يفكر ويفكر، ويبحث عن وسيلة ينبه بها المسلمين إلى دخول وقت الصلاة ف:

## كيف ينادي إلى الصلاة

لقد (اهتم النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمع الناس لها، فقليل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك. فذكر له: القنع - يعني الشُّبُّور (شُبُّور<sup>(٥)</sup> اليهود) فلم يعجبه ذلك وقال: هو من أمر اليهود.

فذكر له الناقوس، فقال: هو من أمر النصارى)<sup>(٦)</sup>.

(١) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني).

(٢) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير).

(٣) حديث صحيح. (المصدر السابق).

(٤) حديث صحيح. (المصدر السابق).

(٥) الشُّبُّور: هو البوق الذي ينفخ فيه.

(٦) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨).

لم ينزل وحي بهذا الشأن، والحيرة تملأ الجميع.. اجتهد الرسول ﷺ اجتهاد البشر (ثم أمر بالناقوس فتحت ليضرب للمسلمين)<sup>(١)</sup> في وقت الصلاة. أمر ﷺ بذلك وهو كاره له.

عرف ذلك في وجهه أحد الأنصار الذين حضروا ذلك الحوار واسمه: (عبد الله بن زيد بن عبد ربه) (فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ)<sup>(٢)</sup>، وكان بين حرات المدينة من يحمل الحل.. إنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنه بالتأكيد لم يكن حاضراً ذلك النقاش، لذلك لم يقل ما عنده، ولم يقص على أحد ما رآه في منامه.

انصرف الجميع وخيم الليل على المدينة، وانتشرت نجومه فوق نخيلها، ونام رسول الله ﷺ ونام الجميع، ونام عبد الله بن زيد، وبينما هو منسرب في أعماق النوم وجد في تلك الأعماق رجلاً يطوف به:

### رجل من حلم وأذان من وحي

يقص عبد الله رؤياه فيقول: (لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل، ليضرب به للناس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله.. أتبيع الناقوس؟

قال: وما تصنع به..؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة.

قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟

فقلت له: بلى.

قال: تقول:

الله أكبر.. الله أكبر..

(١) حديث صحيح. رواه ابن إسحاق.. وهو من الطريق الصحيحة التي عند أبي داود... وابن إسحاق لم يدلّس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨)...

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة... حي على الصلاة

حي على الفلاح... حي على الفلاح

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقيمت الصلاة:

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة.. حي على الفلاح

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله..

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته بما رأيت.

فقال ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن،

فإنه أندى صوتاً منك»<sup>(١)</sup>.

وبذلك يجعل السنة لأمته في اختيار المؤذن هو حسن الصوت.

ونظراً لأن عذوبة الصوت تزيد القرآن والأذان جاذبية وجمالاً.. كان ﷺ يقول:

«زينوا القرآن بأصواتكم»<sup>(٢)</sup> ويقول: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»<sup>(٣)</sup> ولعذوبة صوت

بلال فقد جعل الأذان من نصيبه رضي الله عنه.

(١) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨/٩٩).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

وها هو صوت بلال الذي ملأ شوارع مكة: أحد.. أحد.. هاهو عذباً كأنهار الحبشة.. حراً كطيورها.. ينساب في سماء المدينة يوقظ فجرها.. يوقظ شمسها، وينادي المهاجرين والأنصار، ويسحرهم بصوته.

يقول عبد الله بن زيد: (فصمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجرد رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فله الحمد»<sup>(١)</sup>).

لا بد أن ابن الخطاب رضي الله عنه لم يحضر تلك الآراء والاقتراحات وإلا لتكلم بما رآه، فقد (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوماً، ثم أخبر النبي ﷺ فقال له: ما منعك أن تخبرني. فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحييت)<sup>(٢)</sup>.

إذاً لا بوق.. لا راية.. لا أجراس. لكنه التوحيد.. حملة طيف جميل (عليه ثوبان أخضران)<sup>(٣)</sup>.

فرحة جديدة للمؤمنين، وتميز جديد. فرحة لعبد الله بن زيد، فرحة لعمر.. وصوت بلال يتدفق منعشاً في شوارع المدينة وسمائها، ولم يكن هناك مئذنة للمسجد، ولا منارة، ولكن:

## فرحة لامرأة من الأنصار

وشرف تتغنى به، وتتافس به تلك الأنصارية التي بنت المنبر لرسول الله ﷺ. امرأة من بني النجار جعلت من بيتها نبعاً للنداء الجديد.. جعلت من كل بيتها موضعاً لقدمي بلال وصوته.

تقول تلك المرأة الكريمة: (كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسحر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه

(١) هذا الحديث بقية حديث أبي داود (٩٩).

(٢) حديث صحيح. صحيح سنن أبي داود (٩٨).

(٣) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

تمطى<sup>(١)</sup>. ثم قال: اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، ثم يؤذن. والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة. يعني هذه الكلمات<sup>(٢)</sup>.

وتصحو المدينة.. المدينة كلها على ذلك الصوت الندي، وتنتعش وتتوضأ. المدينة كلها.. إلا بيوتاً ترتج مفزوعة الجدران والقلوب.. شاخصة الأعين، فصوت بلال رصاص يخترق بيوت يهود، وجدران عبد الله بن سلول وأمثاله.

أما قريش فقد أدركت أن اليهود وأصحابهم من المشركين قد تورموا حقداً وترقباً، وقد حان الوقت لتفجير ذلك الورم في وجه محمد ﷺ ووجوه أصحابه. لقد حان تحويل حرات المدينة إلى أودية من الدماء والحروب، والثارات التي لا تنتهي. فجاءت شرارة تلك الحروب مغلقة برسالة مستفزة من قريش.. جاءت لتجعل من:

### المدينة حريقاً ومذابح

كانت تلك الشرارة حروفاً مشتعلة، رسالةً تنتقد تهديداً ووعيداً. رسالةً تبشر بالمقابر. (كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان، من الأوس والخزرج - ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر - : إنكم أويتم صاحبنا، وأنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي<sup>(٣)</sup> ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ. ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم! تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟! فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا<sup>(٤)</sup> فتفرق الشر وهدأت الأنفاس،

(١) أي تمطى الفجر وامتد نوره في الأفق.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود (٥١٩): حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار: ابن إسحاق سمع شيخه الثقة الذي مرمعنا، وعروة غني عن التعريف والمرأة صحابية من الأنصار رضي الله عنها.

(٣) هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو ما يزال على شركه مجاهراً معانداً...

(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٢ - ١٧١ حدثنا محمد بن داود بن سفيان ثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: عن رجل من أصحاب النبي وقد رواه عبد الرزاق ٥-٢٥٨ وقد انقلب عنده اسم التابعي والصواب ما في أبي داود، فعبد الله بن عبد الرحمن لم يرو عن الصحابة والزهري ليس من شيوخه، والصواب ما في أبي داود، رغم ضعف شيخه. صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود.

وسكنت الأنفس المشحونة بالشر، وسلمت المدينة من حرب أهلية، ومعركة كادت تطحن أهلها وجدرانها.

كلماتٌ قليلة وهادئة أعادت السيوف إلى أغمادها.. أعادت العقول إلى رشدها، وخذلت قريشاً، وخذلت اليهود المتربصين خلف شقوق الأبواب، وتم الحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الوليدة من حركة عسكرية كادت تعصف بأحلامها وشبابها، فالمدينة بحاجة إلى تلك الأحلام وإلى ذلك الشباب، وإلى قائد عظيم وحكيم فكيف بهذا النبي العظيم الحكيم ﷺ. ولم تكن يوماً من الأيام عطشى إلى تلك الدماء.. التي أدمنت سفحها أياد تمسحت بالجاهلية والأصنام، ولن تسفك قريش مهما حاولت أكثر مما سيسفكه أهل المدينة بأيدي بعضهم البعض.. الأوس يدركون ذلك جيداً، والخزرج ليسوا بأقل وعيا منهم بذلك، وخطوات قليلة إلى المقابر الجماعية لضحايا (بُعَاث) تذكرهم متى ما تسلل النسيان إليهم.

إذاً فقد هدأت الأنفس بعد يوم مشحون، ونامت المدينة كطفل على تلك العبارات الحانية كصدر أم حنون، وقدم النبي عليه السلام مفهومه للمواطنة في الدولة الإسلامية.

## مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية

خطاب النبي ﷺ لهؤلاء الوثنيين وعباد الأصنام كان خطاباً تصالحياً راقياً مع الكفار، فقد احتواهم في دولته، ولم يفرح بفرصة تصفيتهم والقضاء عليهم وإقصائهم وهو قادر على ذلك، فزعماءهم معه، ومعه أعداد غفيرة متوثبة من المهاجرين، لكنه لم يفعل ذلك، بل جعلهم ضمن النسيج الوطني في دولته، فهدأ ثورتهم، وطيب خواطرهم، وفرش لهم المدينة ورداً وربيعاً من الأمن والسلام والمصالحة، رغم أنهم على الشرك وعبادة الحطب والخشب والحجارة، ورغم أنه بعث لنشر التوحيد والدفاع عن نشره، ورغم أن زعماءهم أعطوه بيعتهم على الحرب والسلم، لكنه عليه السلام يقدم مثالا على التفريق بين أخوة الإسلام ومفهوم المواطنة، وأنه مع الفارق الشاسع بينهما، إلا أن لكل مفهوم حقوقه وحدوده، وأنه يحرم إضرار النار بين المفهومين.

حال عليه السلام بين أمن دولته وبين أعدائها، وقطع الطريق على من يريدون إثارة الفتنة، وإشعال الحرب الأهلية، فلا إكراه في الدين، ولكن هناك إكراه في المواطنة، فمن لم يرد الدين فله ذلك، ومن لم يرد الوطن فالأوطان كثيرة، لكنه سيظهر السيف في وجه كل من سيظهر سيفه في وجه الدين أو الوطن.

أشرقت الشمس من جديد على هذه المدينة الراقية، والدولة المتحضرة.. وأشرق الوعي بحمل تعليمات جادة وأعيناً أكثر اتساعاً على المستقبل والآفاق، فالمدينة.. المدينة وأهلها في خطر، وتوقعات أبي بكر الصديق ورؤيته الثاقبة بدأت تتشكل على أرض الواقع، ف:

## ماذا توقع أبو بكر؟

منذ أكثر من عام.. عندما أخرج من مكة مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم المرير، وقريش ثائرة الأنفاس مغبرة الأقدام والجياد.. تبحت عن محمد ﷺ وصاحبه وبقية أصحابه، في تلك الساعات الخائفة (لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذُنٌ لِّلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾).

قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال<sup>(١)</sup>.

وصدق أبو بكر، فتلك الرسالة شرارة، والمدينة أمست في خطر، والهشيم يحيط بها من كل ناحية، وفي قلوب المشركين واليهود يتكوم هشيم أخطر، ولا بد من الاحتراز والاحتياط.. لا بد من السلاح في جو مكفهر بالسلاح والشرك، فهب الصحابة رضوان الله عليهم ل:

## حراسة رسول الله ﷺ

ذات ليلة كانت عائشة إلى جانبه ﷺ، وكان السهر إلى جانبهما أيضاً. فقلت عائشة رضي الله عنها، فما الذي حدث؟

(١) سننده صحيح. رواه الطبراني في تفسيره (١٦٠/٩) من طرق عن الأعمش عن مسلم البطيين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ومسلم البطيين هو ابن عمران وهو ثقة من رجال الشيخين وشيخه إمام من أئمة التابعين ومجاهديهم... وهو على شرط الشيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٧٩/٣).

تقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟

قال ﷺ: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة».

فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح. فقال ﷺ: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك.

فقال ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت عائشة: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه<sup>(١)</sup> بعد أن تطوع سعد بن أبي وقاص لحراسته ﷺ. لم يكن الخطر سهماً واحداً نحو رسول الله ﷺ، بل كان أسهماً ورماحاً منطلقة نحو كل مؤمن.. نحو كل أنصاري ومهاجر، ولا بد أن يكون الحذر دائماً. وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة لأتباعه لذلك صار:

### السلاح صباحاً.. السلاح مساءً

صحابي آخر اسمه (أبي بن كعب) يقول: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبني مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)<sup>(٢)</sup>.

سؤال يرتعش خوفاً من هذه الجموع التي اتجهت بخيلها ورجلها، ورماحها وأوثانها نحو مدينة التوحيد الوحيدة. سؤال مُثقل بحمل السلاح والخوف؟ فنزلت الإجابة وحيماً.. قرآناً وبشرى.. نزل الوحي يحمل الأرض... كل الأرض، والدنيا.. كل الدنيا مشرعة الأبواب لمحمد ﷺ وأصحابه.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ لأحمد ٦-١٤١.

(٢) سنده حسن. رواه الطبراني (مجمع البحرين ٥٨/٦) والبيهقي ٣-٦ واللفظ له: أحمد بن سعيد الدارمي ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي: أبو العالية تابعي ثقة وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف التقريب ٢١٠ و٢٠٥ والحسين ثقة من رجال مسلم وابنه حسن الحديث التقريب ١٦٩ وأحمد ثقة حافظ.

يقول أبي ابن كعب: (فنزلت: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١).

آيات تنزل بالأعياد والفتوح والبشرى.. أخذها الصحابة واستبشروا بها.. أخذوها كما يأخذون سلاحهم ليل نهار، فرسول الله ﷺ علمهم أن هناك فداءً، وأن هناك تضحيةً وهدفاً، والهدف لا يأتي لمترددٍ، أو جبان أو خائف. خاصةً في مثل هذه الظروف، فالؤامرة تطل كالوحش فوق رؤوس الجبال على حصن الإسلام الجديد، فلا بد من التحرك.. لا بد من عمل شيء يحمي المدينة ويعيد المظالم إلى أهلها، ويزيح ليل الأصنام الهائل عن عقول وقلوب البشرية وأجيالها، ولن يكون ذلك بالصلاة والدعاء والمعجزات وحدها.. لا بد من:

## نشاط عسكري

فلن يمكن الله عباده ما لم يقوموا بتحويل دنياهم إلى حركة تلهج ب(لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. محمد رسول الله وخاتم النبيين) بدءاً من أنفسهم، حتى تتسق وتتناغم مع حركة الكون كله.. المسيح بحمد ربه ليل نهار.

حمل الصحابة تلك البشرى وحملوا شروطها، فحولت ضعفهم قوةً، وخوفهم أمناً وثقة. فهاهو سعد بن معاذ يتجه إلى مكة الطاهرة.. كالتحدي يتفجر بين أصنام قريش وسيوفها.. ثقةً يتحدى، وثقةً يهدد، فيتحول صناديد وطواغيت قريش حوله إلى خراف ترتجف خوفاً، وتتصبب عرقاً.

(انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أمية بن خلف - أبي صفوان- وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد. فقال أمية لسعد: ألا انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت طففت.

(١) المصدر السابق.

فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟  
فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة وقد آويتم محمداً وأصحابه؟  
فقال: نعم.

فتلاحيا بينهما.. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل  
الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام<sup>(١)</sup>.  
فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك - وجعل يمسكه - فغضب سعد فقال:  
دعنا عنك، فإني سمعت محمد ﷺ يزعم أنه قاتلك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال والله  
ما يكذب محمد إذا حدث<sup>(٢)</sup>.

أصيب أمية بالرعب والهلع بعد أن بشره سعد بالقتل. يحدثنا سعد عن ذلك فيقول:  
أنه (قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصبأ<sup>(٣)</sup>)، وزعمتم أنكم  
تتصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان<sup>(٤)</sup> ما رجعت إلى أهلك سالماً.  
فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا، لأمنعك ما هو  
أشد عليك منه: طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم - سيد أهل الوادي. فقال  
سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال:  
بمكة؟ قال: لا أدري.

ففرع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم  
تري ما قاله لي سعد؟

قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟  
قال: لا أدري. فقال أمية والله لا أخرج من مكة<sup>(٥)</sup>.

(١) طريق تجارة قريش إلى الشام وهو يمر بالمدينة أو قريبا.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٦٢٢).

(٣) يقصد المهاجرين الذين تركوا دين آبائهم وأجدادهم.

(٤) أبو صفوان هو أمية بن خلف.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٩٥٠) (ص ٨١٢).

لقد شلت كلمات سعد الواثقة بالله وبرسوله ﷺ.. شلت هذا الطاغية، فأمسى لا يرى سوى الموت يتربص له في منافذ مكة.. لقد جعل خوفه الأرض.. كل الأرض قبراً يحاصره، ويحاصر مكة معه. أما ذلك الشاب المهاب سعد بن معاذ، فعاد إلى حبيبه ﷺ وهو أكثر قوة و يقيناً.. عاد ليجد المدينة غير المدينة.. عاد لينقل ما رآه وما سمعه من خوف يملأ طغاة مكة، عندما هددهم بقطع طرق قوافلهم إلى الشام، وهي شرايبهم وأوردتهم. عاد لينفذ تهديده، فقد منعه أبو جهل، وعلى أبي جهل أن يتحمل ثمن تهوره وجاهليته الحمقاء. أما رسول الله ﷺ فكان أسبق من سعد إلى هذا التفكير، لقد قرر ﷺ أن يجعل للمدينة قوتها التي تُشعر الآخرين بمنعتها، وتشعر قريشاً خاصة.. أن هذا الدين الجديد صار خطراً يهدد صلف وتسلط شركها، ودروب قوافلها، بل ومكانتها بين العرب، عندما قصد هاب:

### غزوة العُشيرة

وهي أول غزوة بدأها ﷺ وقادها<sup>(١)</sup>، وليس لدينا تفاصيل صحيحة عن أحداثها، والعُشيرة قرب ينبع.. على طريق قوافل قريش، وهي أول تهديد عملي لقريش وقوافلها التي سلبت المهاجرين كل أموالهم، ووصف الله معاناتهم بأنهم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم. كما غزا ﷺ:

### غزوة الأبواء

ليس لدينا تفاصيل موثقة عنها، ولكن وقوعها ثابت في مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة، ذلك المكان الذي وقفت فيه المطايا بمحمد ﷺ وهو طفل صغير، وقفت

(١) ورد أن الأبواء هي أول غزوة لرسول الله ﷺ لكن هذا غير صحيح، فالرواية في ذلك ضعيفة رواها كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده... وكثير هذا ضعيف. وهناك رواية أخرى عن عروة وقد وصلها ابن عائد لكنها من طريق ابن لهيعة.. وليس فيها أن الأبواء أول غزوة بل إن سعداً، أول من رمى سهماً في سبيل الله، وهذا صحيح ولكنه ليس دليلاً على أن الأبواء أول الغزوات لأن العُشيرة -عند المؤرخين - لم يحدث فيها قتال ولم يرم بها بالسهم. أما كون سعد أول من رمى بسهم فقد جاء على لسانه هو ولم يذكر رضي الله عنه متى كان ذلك والرواية عند الشيخين وستمر معنا.

فيه المطايا تودع أمه التي فقدتها هناك وغابت عن عينيه وعن الدنيا حيث دفنت هناك. ذلك المكان الذي أبكاه ﷺ كان موعداً لغزوة لا نعرف أحداثها الصحيحة بعد، لكنها موجهة لقريش التي بدأت التهديد، وهي نوع من الاستطلاع العسكري بالقوة، لرصد تحركات العدو وخطره، أكسبت الصحابة خبرة جديدة في الكشف عن طبيعة الأرض والأعداء المحيطين بدولة الإسلام الجديدة.

كانت تلميحاً لمن تسول له نفسه غزو المدينة والغدر بأهلها، فأزعجت تلك التحركات قريشاً، لكن رسول الله ﷺ كان يعد لهم مفاجأة.. سرية بقيادة صحابي عظيم هو أبو عبيدة، والذي حاز لقباً عظيماً فيما بعد هو: أمين الأمة. فما قصة تلك السرية:

### سرية نخلة

(بعث ﷺ رهطاً، فبعث عليهم أبا عبيدة، فلما أخذ لينطلق بكى صباية إلى رسول الله ﷺ، فبعث رجلاً مكانه يقال له: عبد الله ابن جحش)<sup>(١)</sup>.

حرارة الشوق أبكت أبا عبيدة، وحبه لملازمة رسول الله ﷺ جعلت رسول الله ﷺ يشفق عليه ويبقيه جواره، ليعين قائداً عظيماً. ف (بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب، [مقفلة من بدر الأولى] وبعث معه بثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين:

من بني عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

ومن بني أمية بن عبد شمس ثم من حلفائهم: عبد الله بن جحش بن رئاب - وهو أمير القوم- [وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بني أسد بن خزيمة].

(١) سنده قوي.. رواه الطبري ٤-٣٠٧ وابن أبي حاتم ٢٠٦٤: وغيرهما من طرق عن معتمر بن سليمان عن أبيه، حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله. أبو السوار العدوي تابعي ثقة واسمه حسان بن حريث التقريب ٦٤٦. وتلميذه الحضرمي حق لا بأس به التقريب ١٧١ أما معتمر ووالده فتقتان معروفان.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان، حليف لهم.

ومن بني زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص.

ومن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة - حليف لهم - وواقد بن عبد الله بن عبد

مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة [وخالد ابن البكير - أحد بني سعد بن  
ليث، حليف لهم].

ومن بني الحارث بن فهر: سهل بن بيضاء.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب ونظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت  
في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا  
من أخبارهم.

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب: قال سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه:  
قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتية منهم بخبر،  
وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق،  
ومن كره ذلك فليرجع؟ فأما أنا، فمأضٍ لأمر رسول الله ﷺ. (فرجع رجلاً ومضى  
بقيتهم)<sup>(١)</sup>.

فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى  
إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: (بُحران) أضل سعد ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان  
بعيراً لهما كانا عليه يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقيّة  
أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة، من تجارة  
قريش فيها منهم:

عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله بن  
المغيرة المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم  
وقدنزلوا قريباً منهم.

(١) هذه العبارة ليست في السياق بل هي جزء من الحديث الصحيح السابق. وفي السياق سبب رجوع هذين  
الصحابيين... وهو أنهما فقدوا بعيرهما.

فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وقد كان حلق رأسه - فلما رأوه أمنوه، وقالوا:  
عُمّار، فلا بأس علينا منهم.

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من جمادى، فقال القوم: والله لئن تركتم  
القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر  
الحرام.

فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا  
عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي  
بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، [وأفلت نوفل بن عبد  
الله فأعجزهم] وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالغير والأسيرين حتى قدموا على  
رسول الله ﷺ بالمدينة.

[وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إن  
لرسول الله ﷺ ما غنمتم الخمس، وذلك قبل أن يفرض الخمس من الغنائم، فعزل  
لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرهما على أصحابه]، فلما قدموا على رسول  
الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين، وأبى أن  
يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا،  
وعنفهم المسلمون فيما صنعوا وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر  
الحرام، ولم تؤمروا بقتال].

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم،  
وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان  
بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى.

[وقالت يهود تنفءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن  
عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، واقد بن عبد الله وقدت  
الحرب. فجعل الله عليهم ذلك وبهم] فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على

رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْأَحْرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض

رسول الله ﷺ العير والأسيرين<sup>(١)</sup>. وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي طعن أبو جهل أمه واغتال أباه ضمن تلك السرية.

يحدثنا عن ذلك ابن مسعود وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم فيقولون في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم: عبد الله بن جحش وفيهم: عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، وسهل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب.

وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل (بطن ملل)، فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه:

أَنْ سِرَّ حَتَّى تَنْزِلَ بَطْنَ نَخْلَةٍ. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْمَوْتَ فَلْيَمِضْ وَلْيُوصِ، فَإِنِّي مُوصٍ وَمَا ضِ لَأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فسار، وتخلف عنه سعد وعتبة أضلا راحلة لهما، فأقاما يطلبانها، وسار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعبد الله بن المغيرة.

(١) حديث صحيح عدا ما بين المعقوفين.. رواه الطبري تفسير (٣٦٠/٢) واللفظ له والبيهقي في الدلائل (١٨-١٧/٢) عن عمرو مرسلاً وهو صحيح إلى عمرو لكن لم يذكر شيخه من الصحابة... والحديث له شاهد عند الطبراني (١٧٤/٢) وابن أبي حاتم (سيرة ابن كثير ٣٧٠/٢) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه: حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله: عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح... كما رواه الطبري في التفسير (٣٦٢/٢) وأبهم الحضرمي فقال: إنه حدثه رجل عن أبي السوار وقال الهيثمي في المجمع (١٩٨/٦)/ رجاله ثقات... وله شواهد كثيرة عند الطبري (٣٦٣/٢) عن ابن عباس... وأبي مالك الغفاري.. وعن الزهري وعثمان الجزري ومقسم مولى ابن عباس... أما ما بين معقوفين مثل تصرف ابن جحش في الغنائم وقول يهود فهو مرسل... والحديث يشهد له ما بعده.

فذكر قتل واقد لعمر بن الحضرمي، ورجعوا بالغنيمة والأسيرين، فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون، وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى<sup>(١)</sup>.

وسواء قتل ذلك المشرك في جمادى، أو في رجب، فرسول الله ﷺ لم يأمر بذلك. إنما هي حماسة المهاجرين المقهورين، المطرودين من ديارهم وأموالهم، ولا ذنب لهم سوى أن يقولوا: لا إله إلا الله. لم يتمالكوا أنفسهم - وهم بشر - عندما رأوا أموالهم التي غصبتها قريش واغتصبتها.. تسيل أمامهم تجارة تنمو بين أيدي المشركين، وهم الحفاة الذين تشقت أقدامهم من العوز والفقر، وأضناهم الجوع والتعب.. إنك تبحث بين هؤلاء الرفقة.. تسألهم أين سعد بن أبي وقاص؟ أين عتبة بن غزوان؟ ألم ينطلقا معكم من المدينة؟..

فتأتيك الإجابة حسرةً: لقد انطلق سعد وعتبة وسارا مع السرية، لكن على جمل واحد جاء.. يركب أحدهما، وينزل الآخر. ويركب الآخر فترة ليمشي صاحبه. أما الآن فلا جمل لهما، لقد ند وهرب وهما يركضان على أقدامهما المتشققة خلفه.

يذرعان بطون الأودية والشعاب، ولا أحد غير الله يعلم ما سيحدث لهما.

ما موقف الإنسان.. أي إنسان يرى أموال سارقه وقتل أمه وأبيه أمام عينيه بينما هو يأكل ورق الشجر من الفقر؟

ما موقف الإنسان.. أي إنسان حافي القدمين يبحث عن جمل، ثم يرى جماله المسلوب منه تتقاطر بالمال، بينما تتقاطر قدماه بالدماء؟ ما شعور سعد المشرد الفقير الذي يصف الأجواء التي عاشها في مثل تلك المهمات الصعبة فيقول: (إني لأول العرب

(١) سننه قوي. رواه السدي (تفسيره ابن كثير ٢/٣٧٠) عن أبي صالح عن ابن عباس وهذا ضعيف من أجل أبي صالح وهو (بإدام) لكن السدي رواه من طريق أصح عن مرة عن ابن مسعود وجماعة من الصحابة، ومرة بن شراحيل تابعي كبير ثقة. وهو صحيح بما قبله.

رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خلط<sup>(١)</sup>.

إن رجلاً لا يجد سوى ورق الشجر لمعذور أن ينهب ما يسد به رمقه، ويدفع به الموت عن نفسه، فكيف إذا كانت تلك الأموال أمواله وأموال أصحابه المسلوبة.

وبعد هذا كله لا يعذرهم عليه السلام، وينتظر حكم الوحي فيهم، فيتنزل العذر من فوق سبع سماوات انتصاراً من الله لعباده، وتبرئة لساحتهم البيضاء من تهم أهل الشرك، الذين ارتكبوا الفظائع والشنائع بحق الله أولاً، ثم بحق رسوله ﷺ وصحابته الكرام. عاد الصحابة نصراً وبراءة.. عادوا ليجدوا في المدينة خيراً.. ليجدوا في وجه رسول الله ﷺ فرحاً، وفي وجوه يهود كدراً وظلمةً. لقد فقدت يهود شيئاً عظيماً، وانقطع آخر الحبال بينهما.

اليهودُ حداد.. اليهود سواد، بعد أن طرقت ذلك الخبر أبواب حصونهم المنيعَة وآذانهم المسدودة.

### فما هذا الخبر؟

هذا الخبر هدية قادمة من السماء.. كان في الماضي شوقاً، وكان أمنية تتردد في صدره ﷺ مذ كان في مكة.. مذ كان يخسر ساجداً لله في بيته المحرم.. متجهاً بقلبه نحو الله.. مستقبلاً الشام.. حيث المسجد الأقصى، لكنه كان يقوم بحركة تعبر عن ذلك الحلم الذي لا يستطيع الإفضاء به. كان ﷺ يجعل الكعبة أمام وجهه، بحيث تكون بينه وبين المسجد الأقصى. لكن ماذا عنه الآن؟

إنه ما زال ينفذ أمر ربه، فيستقبل المسجد الأقصى، أما الكعبة.. أما حبيبته الحزينة التي نشأ بالقرب منها، وأحبها ووضع حجرها، فالجاهلية بينهما.. حبيبته بعيدة.. لا يستطيع رؤيتها، ولا الحديث إليها، ولا تحسس ثيابها، ولا حتى استقبالها.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٢٨).

إنها هناك أسيرة.. وهو هاهنا مشتاق.. يتقلب وجهه في السماء، ويطوف طرفه في أرجائها (كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿ قَدْ زَرَى نَقْلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ ﴾) (١).

إذاً فالقبلة تحولت من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة المكرمة، لكن متى كان ذلك..؟ وما علاقة اليهود بالقبلة واتجاه المسلمين في صلاتهم؟ وماذا حدث عند سماع الخبر؟

أما متى؟ فخبير ذلك عند طفل عذب اسمه (البراء بن عازب) حيث يقول: (إن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها: صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه ﷺ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة.

فداروا كما هم قبل البيت) (٢) أي اتجهوا نحو الكعبة، منفذين.. ممتثلين دون تردد، فالأمر وحي.

لكن إذا كان هناك تساؤل فهل هو اعتراض أو احتجاج كاحتجاج يهود؟ المؤمنون أرقى من ذلك، إن لهم قلوباً رقيقة ومشاعر طيبة، وأدباً جمياً. كان تسألهم رحمة وشفقة بإخوانٍ لهم ماتوا ولم يصلوا تجاه المسجد الحرام. البراء ينقل تلك المشاعر فيقول: (فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس) (٣).

(١) سننده صحيح. رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير، البقرة ١٤٣): حدثني إسماعيل ابن أبي خالد، عن أبي

إسحاق، عن البراء. وشيخ ابن إسحاق وشيخ شيخه تابعيان ثقتان ثبتان.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

بل إن البراء رضي الله عنه كان أحد المتسائلين. هو نفسه يقول: (وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا، لم ندر ما نقول فيهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> وهو أرحم من أن يخذل من قصده، وأناخ رحله وقلبه ببابه. ولعل تلك التساؤلات بدأت بعيد الصلاة، حيث بدت المدينة مشغولة بهذا الحدث الكبير، فتأخر وصول الخبر إلى أهل قباء ومسجد قباء، ف (بينما الناس بقاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليهم الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة. فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة)<sup>(٢)</sup>. كما استدار أصحابهم في المدينة.. كما امتثل إخوانهم هناك خلف رسول الله ﷺ. أما اليهود فقد استدارت قلوبهم ودروبهم عن الله، وعن رسوله ﷺ، وعن قبلته الجديدة، وتطايرت من حصونهم وألستهم ألفاظ الاستهجان والاحتجاج.

ها هم يجوبون شوارع المدينة، في سفاهة وسماجة يقولون: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup>.)

لله المشرق والمغرب ولا شيء لليهود، والأمر وحي، واليهود حاربوا الوحي، وقتلوا حملة الوحي من الأنبياء، فكيف لا يحاربون وحياً نزل على غيرهم؟ ونبياً ليس من بينهم؟ واكتملت الآيات، فتلاها رسول الله ﷺ وتلاها أصحابه، ومن بعدهم سبتلونها.. سبتلونها هكذا: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ<sup>(٤)</sup> مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ<sup>(٥)</sup>﴾ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لنكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٣) ومسلم من حديث ابن عمر (المسجد ١٢).

(٣) سنده صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٤) أي اليهود.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٦﴾ قَدْ رَزَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ (١) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٥٠﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَقِيمُوا الصِّرَاطَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ كُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥١﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَّيْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٣﴾ .. يهتدون إلى ما أعرضت عنه اليهود، وضل عنه النصراني. كانت تلك الأحداث بعد منتصف شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، وبعد عودة سريرة عبد الله بن جحش، حدثنا بذلك سعد بن أبي وقاص.. ربما بعد أن وجد بغيره.

يقول رضي الله عنه: (صلى رسول الله ﷺ ست عشر شهراً، ثم حول بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين) (٤).

إذا فالنخل الذي كان في قبلة المسجد أصبح في خلفية المسجد، وبما أن المسجد كان (مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل) فبالتأكيد تكون خلفيته كلها

(١) أي باتجاه المسجد الحرام.

(٢) أي اليهود.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١٤٢-١٥٠.

(٤) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٧٢: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا ابن فضيل، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: سمعت سعد . سعيد إمام التابعين وتلميذه تابعي ثقة التهذيب ١١-٢٢١ ومحمد بن فضيل بن غزوان ثقة ثبت ٥٠٢ وسماع تلميذه للسيرة صحيح، وأبو العباس الأصم ثقة ثبت.

مسقوفةً، وبناء جدار في قبلته السابقة أو أحد زواياها، قد يفي بحاجة ماسة.. فهناك أمر يحطم القلب، وتدمع له العين.. هناك حاجة ملحة تطل من منافذ المدينة كل يوم، حيث يتهاذى إلى المدينة مهاجر أو مهاجرون. بعضهم ضاق بقومه، والبعض ضاق به قومه وضيقوا عليه، وسلبوا كل شيء لديه، أو دفع كل شيء ثمناً لهروب جميل أو هجرة أجمل. دون مال يأتون.. البعض حفاة، وبعضهم أشباه عراة، وأحضان المدينة والأنصار مفتوحة لهم، وهذه الدولة الصغيرة تستقبلهم وتحميهم، لكن بيوت الأنصار قد امتلأت، والهاربون والمطاردون قد كثروا.

نظر ﷺ إليهم.. تأملهم.. تأمل أبيات الأنصار الممتلئة، وتأمل فقره وفقرهم.. نظر ﷺ إلى مسجده، فجعله دار من ليس له دار، ومأوى من ليس له مأوى، فبنى ذلك الجدار في آخر المسجد<sup>(١)</sup>، فأصبحت حجرة (صفة) متواضعة.

تدافع القادمون إليها، وعاش في تلك الصفة رجال يمسي الفقر معهم حيث أمسوا.. يبيت معهم، ويصبح كظلمهم، يأكل ولا يأكلون، ويشرب ولا يشربون.. عاشوا فيها أياماً ليست كالأيام، وميزهم الفقر بلقب كالفقر هو:

## أهل الصفة

رجال فضلوا جوار رسول الله ﷺ رغم العوز على أن يعيشوا عيشة أيسر بجوار طاغية أو صنم.. يصفهم أحد الصحابة فيقول: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال)<sup>(٢)</sup>.

ويقول أحد الذين شاهدوهم: (كان أصحاب الصفة الفقراء)<sup>(٣)</sup> لا يملكون شيئاً.. غرباء لا يعرفون أحداً. هذا هو أحد الفقراء.. أحد الذين عاشوا تلك المعاناة، ودلفوا إلى تلك الصفة الجميلة.. غريب اسمه (طلحة بن عمرو) رضي الله عنه يقول: (كان

(١) لا أعرف تحديداً صحيحاً لموقع الصفة وإلا لذكرته وذكرت إسناده.

(٢) متفق عليه.. انظر البخاري (٦٤٥٢) وهو حديث طويل وما ذكرته جزء منه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٠).

الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة. وكنت فيمن نزل الصفة<sup>(١)</sup>.

لكن ماذا عن شعور رسول الله ﷺ نحو هؤلاء الضعفاء بعد أن بنى لهم تلك الصفة؟ هل تخلى عنهم؟

يوصل طلحة حديثه فيقول: (وكنت فيمن نزل الصفة، فوافقت رجلاً، وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين)<sup>(٢)</sup> لأن رسول الله ﷺ لا يجد لهم أكثر من مد للثمين معاً.. نصف مد يملأ الكف الواحدة.. هو طعام الرجل الواحد من أهل الصفة.. من الليل إلى الليل.. ليومه وليلته، وقد يأكل الرجل منهم، وقد يأكلون جميعاً بينما رسول الله ﷺ لا يجد ما يأكله، وقد لا يجدون ولا يجد رسول الله ﷺ ما يأكله.

يقول أحد الصحابة: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال. إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها)<sup>(٣)</sup>.

إذا فنصف المد لم يكن متوفراً يومياً، بل ربما مر يوم أو يومان والانتظار يحرق أهل الصفة.. ينظر بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى باب الصفة.. إلى باب المسجد.. إلى باب رسول الله ﷺ يبحثون عن لقمة.. عن نصف لقمة.. عن أي شيء يسد جوعهم، فلا يجدون سوى الجوع طعاماً وشراباً، ويخرج رسول الله ﷺ من بيته، فتتعلق أعينهم به، ويحدقون ببديه فيجدونها خالية كبطونهم. فيدركون أنه ما من طعام.

يقول أحدهم: (الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع)<sup>(٤)</sup> مثل هذا الجائع.. كيف سيصلي وقد حان وقت الصلاة؟!

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٢-٢٨٧ وأبو نعيم ١-٣٢٩ واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو. داود ثقة متقن وشيخه تابعي ثقة قيل اسمه محجن أو عطاء التقریب ٢٠٠ و٦٣٢ وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (٢/٢٨٧) وهو الحديث السابق.

(٣) متفق عليه قال أبو نعيم (١/٣٢٩).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٦٤٥٢).

ها هو ﷺ يدخل المسجد فتقام الصلاة، ويقوم أهل الصفة خلف رسول الله ﷺ للصلاة، وبعضهم يترنح من الهزال والجوع، فيصطفون بين إخوانهم المصلين، ويكبر ﷺ، فيكبرون. وفي لحظات الخشوع الهادئة مع الله.. يسمع المصلون دويًا وارتطامًا بين الصفوف، ويسمع رسول الله ﷺ خلفه حركةً وأنياناً، وتخفق القلوب القريبة من الحدث، ويتألم الجميع بعد انقضاء الصلاة، وينهض عليه السلام بنفسه، فما الذي حدث؟ هذا هو فضالة بن عبيد الأنصاري.. أحد الصحابة.. كان يصلي خلف رسول الله ﷺ.. سألتناه:

### ماذا حدث يا فضالة

فيجيب فضالة وهو عالم من الشعور والألم فيقول: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم لما بهم من الخصاوية<sup>(١)</sup> وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين. فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول: لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة<sup>(٢)</sup>).

قال فضالة: فأنا مع رسول الله ﷺ يوماً<sup>(٣)</sup> حيث كان يواسيهم، ويدفع عنهم ما يؤلمهم بشيء يهون معه الجوع، وتحلو معه المعاناة.. يعزيهم بشيء يحول الموت وما بعده إلى أمنية وحلم لا حدود له. ومع هذا العزاء وهذه المواساة كان ﷺ يتألم لتألمهم، ويتألم مثل ألمهم.

تقول حبيبته عائشة رضي الله عنها: (كان ﷺ إذا دخل قال: هل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا. قال: إني صائم<sup>(٤)</sup>).

(١) الجوع.

(٢) الفقر والحاجة.

(٣) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية (١٧/٢) من طريق حيوة وابن وهب عن ابن هانئ أن أبا علي الجنبي حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد. أبو هانئ: حميد بن هانئ الخولاني ثقة التهذيب ٣-٥١) وشيخه عمرو بن مالك الهمداني تابعي ثقة أيضاً التهذيب ٨-٩٥.

(٤) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٨٦٠.

لقد تحول الجوع إلى عبادة، وتحول الأكل عبادة..

قال ﷺ مبشراً إخوانه الموسرين: (الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر)<sup>(١)</sup>.

ويقول ﷺ مندهشاً ومبشراً: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)<sup>(٢)</sup> (عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له)<sup>(٣)</sup>.

يقول ﷺ ذلك، وهو يتمنى لو يدفع عنهم هذا الفقر وهذا الهزال، لكنه لا يجد، فقد كانت تمر به أوقات لا يملك فيها سوى المواساة.. يستمع إلى الشكوى تلو الشكوى، في أجواء من الحرية والفاقة. ها هو (طلحة بن عمرو) أحد أهل الصفة.. يروي لنا حواراً جرى بعد إحدى الصلوات بين رسول الله ﷺ وبين أحد الفقراء، فيقول: (كان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين، فسلم ﷺ ذات يوم من الصلاة، فناده رجلٌ منا فقال: يا رسول الله، قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف.

فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي هو وأبو بكر الصديق عليه السلام من قومهما، فقال: مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن تدركون زماناً - أو من أدركهم منكم - تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى<sup>(٤)</sup> عليكم ويراح<sup>(٥)</sup> بالجفان)<sup>(٦)</sup>.

(١) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٢٣١.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٩٥.

(٣) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢-٨٢٨.

(٤) يقدم لكم في الصباح.

(٥) يقدم لكم في المساء.

(٦) سنده صحيح. رواه أبو نعيم (١/٣٧٤) من طريقين: عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب ابن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو ورواه أحمد من الطريق نفسه وقد مر معنا.

فرح أهل الصفة بهذا الوعد الصادق، وتأثروا لما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق من أذى ومعاناة، حيث يمر معظم الشهر ليس عندهما ما يأكلانه سوى تمر الأراك، فما تعرض له أهل الصفة شديد، ولكن ما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه كان أقسى وأشد.

ينصرف أهل الصفة إلى صفتهم، وقد طوَاهم الجوع والرضى والاحتساب، وانتظار الفرج. ولم يكن ﷺ يواسيهم بالماضي أو بالمستقبل فقط، بل كان إذا اشتدت حاجتهم يتحرك، ويحرك المدينة كلها من حولهم.

يقول أحد أبناء أبي بكر الصديق: (إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس»، وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة<sup>(١)</sup>).

مأساة هم أهل الصفة وارتحال وقصص باكية.. تتصت لها الأجيال بإجلال، فهذا أحدهم: (قرة بن إياس) يقص لابنه ما جرى لهم مع رسول الله ﷺ، وكان اسم ابنه معاوية. معاوية ينصت لأبيه وهو يقول: (لقد عمرنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان. ثم هل تدري ما الأسودان؟ قال معاوية: لا. قال: التمر والماء)<sup>(٢)</sup> هذا هو الطعام وهذا هو الشراب فما هي:

## ملايسكم يا أهل الصفة

لو شاهدتهم لبكيت، ولاستحيوا منك وأنت تنظر إليهم، وتنظر إلى تلك الأشياء التي ألقوها على أجسادهم.. يسمونها ملابس! وما هي بملايس. إنها أسمال مهلهلة بالية.. باكية.

(١) متفق عليه قاله أبو نعيم ورواه في الحلية (١/٣٢٨).

(٢) سننه صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية ٢-٢٢-٢٣ من طريق روح بن عباد. ورواه جعفر بن سليمان، قال: حدثنا بسطام بن مسلم عن معاوية بن مرة قال: قال أبي. وروح وجعفر ثقتان، وشيخهما ثقة من رجال التقريب، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٥٣٨.

لو استمعت إليهم وهم يستغيثون: (يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت  
عنا الخنف)<sup>(١)</sup> الكتانية الغليظة الرديئة.

من يصدق أنه (كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحدٍ منهم رداء)<sup>(٢)</sup>.  
والرداء كالعباءة.

لقد كان ذلك.. رأهم رسول الله ﷺ، ورأهم أحد الصحابة، فنقل للجميع ما رآه  
وقال: (رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من  
هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته)<sup>(٣)</sup> فهو لا يملك  
غيره، ولا يملك ثمن سراويل أو ملابس داخلية تستر عورته.

وفي تفصيل آخر يقول: (رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه  
رداء: إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها  
ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)<sup>(٤)</sup>.

إن من يطلع على تلك المآسي التي تلوَّى منها أولئك الفقراء العظماء، ليظن أنهم  
مجرد فقراء مساكين.. جاءوا يبحثون عن الطعام والشراب والمأوى، وهم - والله - ما  
قدموا من أجل لقمة أو رغيف، ولم يتسللوا من أجل صُفة متواضعة.. إذا ضربها  
المطر ساعة أمطرت عليهم ساعات، وابتلت ثيابهم وجنوبهم وظهورهم، والأرض التي  
يتوسدونها. إن هؤلاء العظماء قد فروا من العيش الرغيد، وتركوا الأهل والأموال  
والعشيرة، وربما الخدم.. تركوا الدنيا بكل زخارفها، لأنها كانت تركز إلى صنم.. لأنها  
كانت تلوذ بغير الله. قرأوا القرآن فاكتشفوا التوحيد، فأعاد خلق تصوراتهم وأفكارهم  
ورؤيتهم للكون والحياة من جديد، فاتجهوا بكليتهم.. بعواطفهم ومهجم وعقولهم إلى

(١) مر معنا وهو صحيح.

(٢) سنده قوي. رواه أبو نعيم. الحلية ١-٣٣٩ حدثنا محمد بن محمد بن إسحاق حدثنا زكريا الساجي حدثنا  
أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عمي عبد الله بن وهب، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة.  
وشيوخ أبي نعيم هو أبو أحمد الحاكم حافظ عصره (طبقات الحفاظ ٣٢٨) وشيخه ابن يحيى ثقة فقيه  
من رجال التقريب وأحمد صدوق من رجال مسلم، وعمه ثقة معروف، وابن غزوان ثقة التهذيب ٨-٢٩٧  
وأبو حازم الأشجعي تابعي ثقة التقريب ٢٤٦.

(٣) رواه أبو نعيم (٣٤١/١) من طريق الإمام أحمد بسند قوي وانظر ما بعده فهو هو...

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٢).

الله سبحانه وتعالى، وتسئلوا والناس نيام إلى صفة لا تقي من البرد، ولا من الجوع. لكنها بالتأكيد صفة تستدفئ بمسجد رسول الله ﷺ، وبقرب رسول الله ﷺ.. يعمرها القرآن، ويزينها الإيمان.

تمر بها عائشة رضي الله عنها ذات ليلة وهي في طريقها إلى بيتها، فتقف خلف جدارها مأسورة مأخوذة. فتبطئ الخطا، وتبطئ على زوجها رسول الله ﷺ. ثم تعود، وعندما تصل يسألها رسول الله ﷺ: (أين كنت؟ قلت: يا رسول الله سمعت قراءة رجل في المسجد، ما سمعت مثله قط.

فقام رسول الله ﷺ وتبعته. فقال لي: ما تدرين من هذا؟

قلت: لا. قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة.

ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا<sup>(١)</sup>.

سالم هذا عبد فقير صغير السن.. لكن النبي ﷺ يفخر به.. يبتهج به، ويشكر الله سبحانه أن وهب هذه الأمة مثله.

إن أمة تفخر بالموالي والعبيد كما تفخر بالأشراف، لأمة عظيمة. وإن ديناً يتساوى فيه البشر، ليستحق الخلافة في الأرض.. كل الأرض، ويستحق أن تنقطع الأعناق في الصحاري والقفار بحثاً عنه.

في يوم من الأيام يقرر أحد المؤمنين أن يترك أهله ودياره.. يقرر أن يلتحق بتلك الصفة المتواضعة خوفاً على دينه. أيام تمر وليالي تمضي، وهو يسير مع غلامه في طريق الهجرة، وذات يوم وعندما خيم الليل.. يقرر ذلك الغلام الفرار والهرب من سيده، فيفعل، ويتركه وحيداً مع الليل الخوف، فيواصل سيده المسير دون تردد، وتلك الليلة المشحونة بالهموم والوحدة والإرهاق تملأ صدره.. فيتهد شعراً ويقول:

(١) سنده صحيح. رواه ابن المبارك وأبو نعيم في الحلية (٢٧١/١) من طريق: حنظلة بن أبي سفيان عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة رضي الله عنها ج. حنظلة شيخ ابن المبارك وشيخ الوليد عند أبي نعيم ثقة حجة (التهذيب ٦٠/٣) والتقريب (٢٠٦/١) وشيخه عبد الرحمن بن سابط تابعي ثقة (التقريب (٤٨٠/١) والتهذيب (١٨٠/٦).

يا ليلة من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نجت مسافر بلا رفيق، وليل طويل مخيف، وطريق غير آمنة. كل ذلك يهون، لأنه يؤدي إلى المدينة.. إلى الحبيب محمد عليه السلام.

سكن ذلك المسافر في الصفة، وتخرج منها ليكون أعظم علماء الإسلام في الحديث.. تخرج هو وغيره من تلك الصفة علماء، لأنها لم تكن ملجأ فقط. لقد تحولت إلى كتاب مفتوح منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ﷺ على أهل الصفة فنثر الكنوز بين أيديهم.

عقبة بن عامر كان أحد الحاضرين. سأله ما ذا قال لكم رسول الله ﷺ يا عقبة؟ فقال: (خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطيعة رحم؟».

فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال ﷺ: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، و ثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»<sup>(١)</sup> الإبل التي هي أنفس ما يملكه العربي.. حولها الإسلام إلى أشياء رخيصة أمام أحرف العلم.

وحدث رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم عن العلم والمال، فأمرهم أن يحفظوا هذا الحديث فقال: (وأحدثكم حديثاً فاحفظوه إنما الدنيا لأربعة نفر:

«عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية» يقول: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقاً. فهذا بأخبث المنازل.

(١) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، صلاة المسافرين.

.. وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان. فهو بنيته، فوزرهما سواء»<sup>(١)</sup>.

حتى النوايا والأمنيات حولها الإسلام إلى كنوز، لتتحول حياة المسلم إلى أحلام وآفاق تهون نحوها المعاناة. لذا فقد انطلق أهل الصفة نحو العلم، وانطلق أغنياء الصحابة نحو العلم، ونحو أهل الصفة وغيرهم من الفقراء، وانطلق الأنصار، وتفجر كرمهم من جديد، وفاح عبيرهم، وتوهجت شمسهم نحو أهل الصفة والفقراء. هاهم يقومون بأعمال أشبه بالمعجزات.. أشبه بالخيال، لأنهم الأنصار، ولأنهم ينجزونها كلها في اليوم واللييلة، وفي كل يوم ولييلة.

يحدثنا عنهم أنس بن مالك فيقول: إنهم رجال (من الأنصار يقال لهم «القراء» فيهم خالي «حرام» يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل، يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء)<sup>(٢)</sup>.

ألم أقل إنه عمل أشبه بالمعجزات. قبل شروق الشمس ينهضون.. يصلون، ثم يستسقون لأهل المدينة.. يضعون لهم الماء في المسجد مسبلاً للعطشان، وابن السبيل، ولمن يمر أو يقيم في المسجد. ثم يتوجهون كالحياة إلى خارج المدينة.. تهوي فؤوسهم وسواعدهم.. يحتطبون، ويكدحون، ثم يذهبون به إلى بيوتهم؟

لا، بل إلى السوق حيث يمارسون البيع والشراء.. يبيعون الحطب، ويشترون بثمنه طعاماً لأهل الصفة وللفقراء الآخرين.

هذا هو نهارهم سقاية.. وكدح، وبيع وشراء، ثم صدقة طيبة يدخلون بها البسمة إلى قلوب إخوانهم المساكين. فإذا جن الليل عليهم توجهوا إلى مدرسة الإسلام، ومنبع ثقافته.. إلى المسجد.. يقرأون القرآن، ويتدارسون العلم ويصلون.

لا تدري أهم علماء، أم عمال، أم عباد، أم تجار؟

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع وصحّحي الترمذي وابن ماجه.

(٢) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، الإمارة، ٣ - ١٥١١.

إنهم الحياة إذا رسمها القرآن، ونفتت فيها السنة.. إنهم العطاء بكل أبعاده وأعماقه وأفاقه.. إنهم الأنصار، ولا تعرف الدنيا للأنصار مثيلاً. أما رسول الله ﷺ فقد انطلق من جديد.. يكثف الشعور بالمساكين والفقراء. انطلق رسول الله ﷺ نحو الجميع بوحى جميل وجديد.. وحي يجعل من الإحساس بالفقر والفقراء عبادةً جديدةً.

الإسلام من جديد يقدم للفقراء الهدايا والهبات والمشاعر، فبعد أن مر شهر رجب من السنة الثانية، وحل بعده شهر شعبان أصبح المؤمنون ينتظرون هذا الجديد الجميل، الذي سيطل مع إطلالة هلال شهر رمضان القادم. فرمضان هذه السنة سيختلف عن أي رمضان مضى. لقد أمر الله سبحانه بـ:

### صيام شهر رمضان

وأنزل على نبيه ﷺ آيات بينات يقول فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾<sup>(١)</sup>.

إذا فالصيام كان مفروضاً على الأنبياء السابقين.. كان مفروضاً على اليهود، وكان مفروضاً على النصارى، لكنهم حرفوا فيه كما حرفوا الكتب التي جاء بها أنبياءهم، وزادوا ونقصوا كما فعلوا في التوراة والإنجيل. فصار لكل طائفة صيام، وتشكل الصيام وتنوع حسب أمزجة الأحرار والرهبان.

أما الآن فقد جاء محمد ﷺ، وجاء رمضان، وكتب الصيام من جديد. فما هذا الصيام الذي ضيعه أهل الكتاب وأعاد الله طرياً بمحمد ﷺ؟

### ما هو الصيام

بدأ الصيام بـ: ترك الطعام والشراب والجماع من بعد صلاة العشاء إلى غروب الشمس، فكان المسلم يأكل ويشرب من بعد الغروب إلى أن يصلي العشاء فقط، فإذا

(١) سورة البقرة: الآيات ١٨٣، ١٨٤.

صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب. كما أن من نام في الليل، ثم استيقظ في الليلة نفسها فلا يحل له أن يأكل أو يشرب شيئاً حتى غروب شمس الغد.

هذا إن كان المسلم سليم الجسم، ولا يشكو من أي مرض، وكان مقيماً في بلدته غير مسافر. فإن كان مريضاً أو مسافراً فيجوز له أن يفطر، لكن يجب عليه صيام الأيام التي أفطرها فيما بعد. وقبل ذلك كله كان بإمكان أي مسلم سليماً كان أو مريضاً.. مقيماً كان أو مسافراً. كان بإمكان أي مسلم أن يفطر، ولا يقضي أي يوم أفطره، لكن بشرط.

هذا الشرط هو أن يقوم المفطر بتقديم وجبة تشبع مسكيناً واحداً عن كل يوم أفطره. لكن هذه الأحكام لم تدم. لقد تغيرت ونسخت، وجاءت بعدها:

### أحكام جديدة في الصيام

وكان لهذه الأحكام الجديدة أسباب وقصص.. بعضها طريف، وبعضها يتلوى من الجوع. لكن الصيام لم يتغير. ما زال: ترك الطعام والشراب و... فما هذه القصص؟

البراء بن عازب رضي الله عنه يقص علينا إحداها، ويحدثنا عن أهل بيت صاموا وصام معهم بيتهم، الذي كان خالياً كبطون أهله. ذلك البيت الذي لم يكن فيه ما يبيل الرقيق، أو يسد الجوع. إنه باختصار صفة أخرى..

يقول البراء: (إن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشى لم يحل له أن يأكل شيئاً، ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس، حتى نزلت: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ونزلت في أبي قيس بن عمرو، أتى أهله وهو صائم بعد المغرب، فقال: هل من شيء؟ فقالت امرأته: ما عندنا شيء، ولكن أخرج ألتمس لك عشاء.

فخرجت ووضع رأسه فنام، فرجعت إليه فوجدته نائماً، وأيقظته فلم يطعم شيئاً، وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار، فغشي عليه، وذلك قبل أن تنزل هذه الآية فأنزل الله فيه<sup>(١)</sup>. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾.

(١) صحيح النسائي ٢-٤٦٧ للإمام الألباني وهو في للبخاري (١٩١٥) بلفظ آخر.

فقط ولم ينزل الله كلمة: (من الفجر) بعد قوله تعالى: ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. في بداية الأمر مما جعل بعض الصحابة يخطئ في معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود فكانت هذه القصة الطريفة التي رواها صحابي اسمه سهل بن سعد رضي الله عنه فقال: (أنزلت: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾. ولم ينزل: (من الفجر)، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: (من الفجر) فعملوا أنما يعني الليل والنهار<sup>(١)</sup>.

أما القصة الأخرى فهي تتحدث عن قصر وقت الفطر، وأنه مرهون بأداء صلاة العشاء. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو يتحدث عن قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فكان الناس على عهد النبي ﷺ إذا صلوا العتمة<sup>(٢)</sup> حرم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه فجامع امرأته وقد صلى العشاء ولم يفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك يسراً لمن بقي ورخصة ومنفعة، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وكان هذا مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر<sup>(٣)</sup> فجعل الفطر مباحاً حتى طلوع الفجر، فيصوم المسلم حتى يغيب قرص الشمس حيث قال ﷺ لأصحابه: «إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»<sup>(٤)</sup>.

أما عن الصوم الاختياري في أول الأمر، فقد تغير أيضاً وألغى كما قال الصحابي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ كان من أراد منا أن يفطر ويفتدي فعل، حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها)<sup>(٥)</sup>.

(١) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري (٤٥١١).

(٢) العشاء.

(٣) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٤٠/٢).

(٤) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١٢٧/١).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (صحيح أبي داود ٤٤١/٢).

فما هي الآية التي بعدها والتي نسختها وغيرت كل الأحكام السابقة التي مرت معنا؟ هذه الآية هي في قوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْقَنَ بُشْرُوهنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْآتِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهنَّ وَأَنْتُمْ عَلَكْفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (١) ..

هذا هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، والذي قال فيه ﷺ: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان) (٢).

شهر الكتب المنزلة التي ضاع بعضها، وحرف بعضها، ولم يبق منها سوى القرآن شاهداً لها.. شاهداً على أممها، التي ضيعتها وحرفتها، ورغم الصوم.. ورغم الجوع والعطش، لم يتحول هذا الشهر إلى شهر للخمول، ولم تتحول المدينة فيه إلى جدران يغط تحتها الصائمون، ويستندون كالكسل إليها وأعينهم إلى الشمس ينتظرون غروبها. فالمدينة تعج بالحركة نهاراً، وبالقيام والتهجد ليلاً. بيوت المؤمنين في ليالي رمضان تشتعل بنور القرآن.. بالسجود والركوع والدموع.

(١) سورة البقرة: الآيات ١٨٥-١٨٧.  
(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١/٣١٢).

في تلك الليالي كانت إحدى الحجرات وجعاً وأنيباً.. أنين قادم من الحبشة.. قادم من المعاناة، وما كادت تستقر به الأقدام بين حرات المدينة حتى كان موعده المحتوم مع المرض والآلام.

فلذة كبد رسول الله ﷺ وقرّة عينه هي تلك الأنين.. رقية بنت محمد ﷺ أقعدها المرض، وأسهر زوجها عثمان بن عفان، وآله.

## رقية مريضة

هاجرت من مكة.. خاضت البحر فألقاها في الحبشة، وخاضته مرةً ثانية، فتهدأ بها حتى وضعها بين يدي والدها العطوف الحنون. وما كادت تتنفس هواء الحرية والأمن، حتى أطاح بها المرض، فهي طريحة الفراش والوجع في ذلك الشهر الكريم.

رسول الله ﷺ يزورها ويطمئن عليها، ويوصي زوجها الحزين بملازمتها. رقية بضعة من رسول الله ﷺ، والأمة أمانة، والرسالة أمانة. هموم تتداعى إلى قلبه ﷺ.. تتكتل أمام عينيه، ولا بد لها من حلول. رقية مريضة، وأهل الصفة جائعون، والمهاجرون قد سُلبوا أموالهم وبيوتهم لينجوا بأنفسهم وإيمانهم من سياط الشرك وأهله، وهناك فرصة تلوح في الأفق لاسترجاع شيء مما سلبه الطواغيت منهم.

ترى هل يبقى ﷺ قرب ابنته الحبيبة؟ أم سيركب إلى تلك الفرصة؟ هكذا كانت ليالي رمضان الأولى في المدينة، لكن كيف كانت ليالي رمضان في مكة. ساندع رسول الله ﷺ حتى يقرر ولنتسلل إلى مكة لنرى:

## كيف كان ليل رمضان في مكة

إذا كانت أنسام الليل تحمل أنين رقية ودموعها، فإن أنسام مكة تحترق بزفرات نساء ورجال مستضعفين.. يمنعه الضعف من البوح بتوحيدهم ودينهم، وحبهم لنبيهم ﷺ. أسرارهم كالجمر في صدورهم.. يربعهم ليل مكة، ويؤرقهم العيش بين الأصنام والشرك والمشركين الذي كان ليلهم خليطاً من الخمر والغطيظ.

أنسام مكة تحترق بزفرات أخت رقية المريضة.. أختها الكبرى زينب، التي تتحرق شوقاً إلى أبيها.. إلى أخواتها الحبيبات.. رقية وأم كلثوم وفاطمة. إنها لا تعلم شيئاً عنهم، ولا تدري هل ستلتقي بهم يوماً من الأيام أم لا؟ ونبى الله ﷺ يشناق إليها ويحبها ويشتي عليها، ويتمنى قربها وقدمها.

إنها أكبر بناته، وقد عانت وعانت الكثير في سبيل الله. إنها ابنة نبي، لكنها زوجة رجل لا يزال على شركه.. رجل صادق ووفى اسمه: أبو العاص بن الربيع، وهو شغوف بها ويحبها، لكن شركه يخنق ليلاً وأنفاسها. فتاة مستضعفة مبتلاة، وهموم تزدحم في صدر والدها عليها وعلى أختها، وعلى كل مستضعف ومستضعفة. هذا هو ليل زينب الحزينة. وهذا هو ليل مكة المخيف الذي كان يحمل الفزع إلى إحدى البيوت.. إلى إحدى النساء التي كانت غارقة في نومها، حتى انتشلها الفزع، وانتشلها فارس الأحلام.

فارس الأحلام أتاها، لا ليحملها بين ذراعيه، بل لديك بيوت قومها. فارس الأحلام هذا مخيف ومرعب.. يقفز في الهواء.. فوق الكعبة والجبال.. يحرك الصخور.. يصيح بأهلها.. صوته مخيف.. يتوعد بالموت والشظايا.

تلك المرأة المفروعة لم تكن بعيدة من زينب بنت نبي الله ﷺ.. بل من أقرب الناس إليها، وتعيش بالقرب منها. امرأة من صلب قريش.. إنها ابنة عبد المطلب، وعمة رسول الله ﷺ واسمها: (عاتكة). فهل يا ترى ستكون رؤياها كرؤيا والدها، الذي غاص في الأعماق وحفر زمزم؟ أم أن فارس القمم الذي رآته في منامها سيدمدم ما تبقى لقريش من آبار تنضح بالشرك؟

تلك الرؤيا حولت مكة إلى غبار وضجيج، ونزاع وتشاتم. سنخيم على بيت عاتكة لننظر ما يحدث في منامها:

## رؤيا

### عاتكة بنت عبد المطلب

(كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ ساكنة مع أخيها العباس بن عبد المطلب، فرأت رؤيا قبيل بدر ففزعت، فأرسلت إلى أخيها عباس من ليلتها حين

فزعت، واستيقظت من نومها وقالت: رأيت رؤيا وقد خشيت منها على قومك الهلكة؟ قال: وما رأيت؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها، فإنهم إن سمعوها آذونا، فأسمعونا ما لا نحب.

فعاهدها عباس، فقالت: رأيت راكباً أقبل على راحلته من أعلى مكة يصيح بأعلى صوته: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث.

ثم دخل المسجد على راحلته، فصرخ في المسجد ثلاث صرخات، ومال إليه من الرجال والنساء والصبيان، وفزع الناس له أشد الفزع، ثم أراه مَثَلً على ظهر الكعبة على راحلته<sup>(١)</sup>، فصاح ثلاث صرخات: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث. حتى أسمع من بين الأخشبين<sup>(٢)</sup> من أهل مكة.

[ثم إن بعيره مَثَلٌ به على رأس أبي قبيس<sup>(٣)</sup>] فقال: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث].

ثم عمد لصخرة عظيمة فنزعها من أصلها، ثم أرسلها على أهل مكة، فأقبلت الصخرة لها دوي، حتى إذا كانت عند أصل الجبل أرفضت<sup>(٤)</sup>، فلا أعلم بمكة بيتاً ولا داراً إلا قد دخلها فلقة من تلك الصخرة. فقد خشيت على قومك أن ينزل بهم شر.

ففزع منها عباس وخرج من عندها، فلقي من آخر ليلته الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان خليلاً للعباس - فقص عليه رؤيا عاتكة، وأمره أن لا يذكرها لأحد.

فذكرها الوليد لأبيه، وذكرها عتبة لأخيه شيبه، وارتفع حديثها حتى بلغ أبا جهل ابن هشام، واستفاضت. فلما أصبحوا غدا عباس يطوف بالبيت حين أصبح، فوجد أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة وأميه بن خلف وزمعة بن الأسود وأبا البخخري في نفر يتحدثون. فلما نظروا إلى العباس يطوف بالبيت ناداه أبو جهل: يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فآتنا.

(١) قفز بعيره الذي يركبه على ظهر الكعبة.

(٢) جبلان يعيطان بمكة. أي سمعه الناس الذين يسكنون بين هذين الجبلين.

(٣) اسم جبل. أي قفز به بعيره على رأس ذلك الجبل.

(٤) تفرقت: أي تطايرت متحولة إلى حجارة صغيرة وشظايا عند أسفل الجبل.

فلما قضى طوافه أتى فجلس، فقال أبو جهل: يا أبا الفضل، ما رؤيا رأتها عاتكة؟

قال: ما رأيت من شيء. قال: بلى. أما رضيتم يا بني هاشم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء، إنا كنا وأنتم كفرسي رهان<sup>(١)</sup>، فاستبقنا المجد منذ حين، فلما تحاذت الركب قلت: منا نبي<sup>(٢)</sup>. فما بقي إلا تقولوا: منا نبية!! لا أعلم في قريش أهل بيت أكذب رجلاً، ولا أكذب امرأة منكم.

فآذوه يومئذٍ أشد الأذى، وقال أبو جهل: زعمت عاتكة أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت لقريش كذبكم، وكتبنا سجلاً ثم علقنا بالكعبة: أنكم أكذب بيت في العرب رجلاً وامرأة<sup>(٣)</sup>.

يقول العباس: [فوالله ما كان إليه مني من كبير إلا أنني أنكرت ما قالت، فقلت: ما رأيت شيئاً ولا سمعت بهذا].

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن: أصبرتم لهذا الفاسق<sup>(٤)</sup> الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم تناول النساء وأنت تسمع، فلم يكن عندك في ذلك غيرة!!

فقلت: قد والله صدقتن وما كان عندي في ذلك من غيرة، إلا أنني قد أنكرت ما قال، فإن عاد<sup>(٥)</sup> لأكفينه.

فقعدت في اليوم الثالث أتعرضه ليقول شيئاً فأشاتمته، فوالله إنني لمقبل نحوه، وكان رجلاً حديد الوجه، حديد النظر، حديد اللسان، إذ ولى نحو باب المسجد يشتد. فقلت - في نفسي -: اللهم العنه كل هذا فرقاً<sup>(٦)</sup> أن أشاتمته، وإذا هو قد سمع ما لم

(١) أي كالمثسابقين إلى هدف.

(٢) يقول هذا الطاغوت: إنكم يا بني هاشم ادعيتم النبوة كذباً عندما تساوينا وإياكم في الشرف والمجد حتى تتغلبوا علينا.

(٣) انظر تخريجه في نهاية القصة.

(٤) المقصود هو أبو جهل.

(٥) المقصود هو أبو جهل.

(٦) خوفاً.

أسمع: صوت ضمضم بن عمرو، وهو واقف على بعيره بالأبطح، قد حول رحله، وشق قميصه، وجدع بعيره<sup>(١)</sup> يقول: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة. أموالكم مع أبي سفيان، وتجارتم قد عرض لها محمد وأصحابه، فالغوث، الغوث. فشغله ذلك عني وشغلني عنه، فلم يكن إلا الجهاز حتى خرجنا<sup>(٢)</sup>.

لقد ثارت قريش وهاج الكفر كله، فما الذي أصاب القوم حتى صاروا كالمجانين؟ هل تحققت رؤيا عاتكة وصدقت، وكذب أبو جهل وطار عقله، فطار عقل أمية وصوابه؟ ما الذي حدث، وماذا فعل رسول الله ﷺ بأبي سفيان وقافلته هذه؟

لقد كنا في المدينة عند رقية حيث كان بيتها ساكناً إلا من أئينها.. حيث كانت المدينة ساكنة بالإيمان، فما الذي كان يخطط له رسول الله ﷺ والناس نائمون؟

سنعود إلى المدينة حيث ترقد رقية. ها هي طريحة الفراش والألم، وها هو عثمان يقربها ينظر إلى حبيبته وردة تذبل يوماً بعد يوم.. تذبل ألماً بعد ألم. لقد عاها أبوها ﷺ قبل أيام، ورأى ما بها فأوصى عثمان الحزين بالمكوث عندها، ثم ودعها بعد أن ألقى عليها نظرة الوالد المحب الحاني، وودعته بعينين حزينتين.

كأنني بعينها تغرقان بالدموع.. تتعلقان بهذا الوالد الذي لا يستطيع البقاء عندها، ولا يملك لها سوى الدعاء..

استودعها الله وتركها، ومرارة الوداع في حلقها وقلبها، ومرارة الوداع في كلماته لعثمان. وعثمان صابر محتسب.. يفوته الخروج مع حبيبه ﷺ فيصبر، وقد تفوته رقية وترتحل عنه. أي ليل سيخيم على عثمان؟

(١) أي قطع أنفه تعبيراً عن هول الكارثة التي حلت بقريش.

(٢) هذا الخبر حسن بطرقه... وهو عند الطبراني (٢٤٦/٢٤): ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير. وهذا مرسل وابن لهيعة فيه ضعف، لكن الرواية ثابتة عن عروة عند ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، ويزيد ثقة كما رواها ابن إسحاق بسند متصل: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس، وقد صرح ابن إسحاق باسم شيخه الذي وثقه فقال: حدثنا حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.. ورغم أن رواية السند لكلمة من بيت العباس بن عبد المطلب إلا أن حسناً هذا ضعيف، وروايته تتقوى بمرسل عروة.. انظر البيهقي ٢-٢٩ وهي عند الطبراني من طريق عبد العزيز بن عمران. حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عن عاتكة وعبد العزيز قد توبع عند ابن منده لكن شيخه ضعيف وبقية الرواة ثقات، والقصة حسنة بهذه الطرق.

رسول الله ﷺ أكثر صبراً واحتساباً.. ابنة في مكة لا يستطيع رؤيتها.. حبيسة الشرك. وابنة حبيسة المرض، وأصحاب معدمون يتزاحمون في صفة مليئة بالجوع، وقريش تسرح وتمرح وتتاجر بأموال أصحابه، وأمة تحتاج إلى قائد يحملها إلى المستقبل، وإلى تلك الفرصة من التعويض وانتزاع الحقوق المغتصبة.

قدم ﷺ حاجة أمته على حاجته، ومصالحتها على هموم أسرته، فخرج، لكن إلى أين؟.. هاهو أنس بن مالك يسير مع رسول الله ﷺ سنعرف منه ما حدث. إنه يتكلم فلننصت إليه:

### الخروج وأسبابه

يقول أنس رضي الله عنه: (بعث رسول الله ﷺ (بسياسة) عيناً ينظر ما صنعت غير أبي سفيان. فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>).

ذهب الصحابي المدعو «بسياسة» في مهمة حددها ﷺ، وهي تحسس أخبار القافلة القرشية القادمة من الشام نحو مكة، والتي يقودها أبو سفيان بن حرب، وتم رصد وتحديد طريق سيرها ومكانها. أتم بسياسة مهمته كما هو مطلوب منه، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ (فحدثه الحديث، فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يستأذنونهم في ظهورهم في علو المدينة؟ قال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً)<sup>(٢)</sup>.

جاء أبو بكر، وجاء عمر، وجاء علي، أما عثمان فاستبقاه رسول الله ﷺ بالمدينة، وأمره بالمكوث، وجاء بقية الصحابة من المهاجرين والأنصار، وجاء عمر بن الخطاب بابنه الصغير عبد الله فتأمله ﷺ، فوجده طفلاً، فأعاده مكسور الخاطر بعد أن كان يحلم بخطوات يسيرها في دروب البطولة والشهادة.

وجاء طفل آخر اسمه البراء بن عازب، فأعاده ﷺ أيضاً، فراح فيما بعد يتحدث إلى من حوله عن تلك الرفقة العظيمة، ويصفها بالإيمان ويتمنى لو سار معها فيقول:

(١) قال بعد هذه الكلمة: لا أدري ما استثنى بعض نسائه، أي أن بعضهن كانت عنده ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكنا - أصحاب محمد- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)<sup>(١)</sup>.

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومعه فتى صغير اسمه (عمير) إنه أخوه، وهو شجاع مثله، لكنه كان خائفاً مضطرباً، بل لقد بكى. فكيف يكون شجاعاً، وكيف يرغب في الشهادة وقد انتابه الخوف والبكاء؟!

تلك قصة عجيبة رويت عن أخيه سعد حيث يقول: (رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ بدر يتواري، فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرنى، فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة.

[فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع.

فبكى عمير فأجازه رسول الله ﷺ] فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره)<sup>(٢)</sup>.

كأنني بسعد يعقد سيور سيفه لأخيه ويتسم، فيبتسم عمير لمن حوله وللجنة. قصة مؤثرة تسيل دموعاً وشوقاً للشهادة، وشباب ملأت الجنة روحه وجوانحه. إنها حال الشباب في أي زمان ومكان تحل فيهما قيادة إسلامية صافية ومخلصة. لقد اجتاز عمير بن أبي وقاص آخر العقبات في حياته، وها هو أمام بوابة مشرعة على الخلود. عمير من ثمار الرسول ﷺ.. عمير وغيره.

انظروا إلى هذين.. إنهما صديقان يكبران عميراً بقليل.. أسدان اسم أحدهما: (معاذ بن عمرو بن الجموح) واسم الآخر (معاذ بن عفراء) وعلى أحد الأبواب، وفي

(١) حديث صحيح. رواه البيهقي (٣٦/٢) وهو عند البخاري بلفظ آخر... انظر البخاري (٣٩٥٥، ٣٩٥٦، ٣٩٥٧، ٣٩٥٨).

(٢) ما أريده من هذه القصة هو ما بين المعقوفين أما ما كان خارجهما فسنده ضعيف لأنه من طريق الواقدي كما في الإصابة - ترجمة عمير - وعند ابن سعد (١٤٩/٢) وما بين المعقوفين عند الحاكم (٤٧/٣) من طريق يعقوب الزهري أخبرنا إسحاق بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن عامر بن سعد عن أبيه.. وهذا السند صحيح ورجاله ثقات لولا أوهام يعقوب بن محمد الزهري وهو صدوق لكنه لم ينفرد فقد تابعه شيخ البزار في روايته (كشيف الأستار ٣٥١/٢) واسمه محمد بن قيس. ولعله توبع أيضاً عند البغوي فقد روى الحديث كما قال الحافظ في الإصابة.

بيت من أبيات المدينة كانت الدموع، وكان الوداع والعناق بين شاب وأمه، ولك أن تتخيل ما تشعر به أم تفارق ابنها.. تودعه وهي لا تدري هل سيعود إليها أم أنها بعثت به إلى الموت، وبعثت بنفسها إلى الحزن والحداد. أم الربيع بنت النضر - عممة أنس بن مالك، وأخت الأسد الهصور: أنس بن النضر- تودع ابنها الذي يرتع في قلبها.. تودع ابنها (الحارث<sup>(١)</sup> بن سراقه) وداعاً حاراً باكياً، لكنها الجنة فليذهب الحارث إلى الجنة من أي طريق شاء.

فارس آخر.. ربما كان يشترى بعض التمر.. ربما كان قبل قليل بين النخيل يخترف منها، وربما غير ذلك، لكنه كان يضع بعض التمرات في جيبه، ولما سمع النداء هب مسرعاً لنداء الله ورسوله ﷺ.. إنه (عمير بن الحمام)<sup>(٢)</sup>.

اجتمع هؤلاء وغيرهم حول نبي الله ﷺ، فكانت المشورة وحرية الرأي قبل الانطلاق.

## المشورة قبل الانطلاق

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ؟ والذي نفسي بيده لو أمرت أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرت أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد، لفعلنا.

فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا)<sup>(٣)</sup>.

ولئن كانت المشورة قبل الانطلاق فقد كان هناك:

- 
- (١) سيأتي الحديث عن هذا الفتى رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.
  - (٢) سيأتي الحديث عن هذا الصحابي رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.
  - (٣) سنده صحيح. رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٤) وروى مسلم نحوه.. وسند أحمد صحيح متصل رجاله أئمة ثقات هم... عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.

## سرية في الانطلاق

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر)<sup>(١)</sup>.

دون ضوضاء.. دون أجراس وضجيج انطلق ﷺ وصحابته، وسمح ﷺ بالانطلاق معه لمن ليس معه راحلة، وأمر ﷺ بالاشتراك والتأوب بين الاثنين والثلاثة على الرحلة الواحدة. فامتثل الجميع وتحركوا نحو تلك القافلة مسرعين.. يطوون الأرض طياً، وفي طريقهم يرون راكباً يسابق الريح إليهم، فيلحق بهم.

ما الذي حدث؟ هل هو عثمان بن عفان جاء ليخبر رسول الله ﷺ أن ابنته زينب اشتد بها المرض؟ أم هو رجل لم يعلم إلا متأخراً فلحق بهم بعد أن علم بالأمر؟

ليس هذا ولا ذاك.. إنه رجل مشرك، لكن فيه من الشهامة والرجولة الشيء الكثير.. إنه يمتطي راحلته وشهامته، ويتجه بهما نحو رسول الله ﷺ يكلمه، ثم يرد عليه ويسير ﷺ، فيلحق به ثم يكلمه مرة أخرى، فيرده ثم يسير ﷺ ويتركه. فمن هذا الرجل، ولماذا تركه ﷺ في مكان يقال له (حرة الوبرة)؟

تقول عائشة رضي الله عنها: (خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة «الوبرة» أدركه رجل يذكر منه جراً ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: «جئت لأتبعك وأصيب معك».

قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا.

قال ﷺ: «فارجع فلن أستعين بمشرك».

ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك.

ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم.

(١) سنده صحيح، رواه أحمد (١٥٠/٦) والنسائي وغيرهما (سيرة ابن كثير ٣٨٩/٢).... سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن بشر والصواب: سعيد بن بشير عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة وقد خالفهما هشام فرواه عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة ومع احتمال التعدد إلا أن سعيداً رغم كونه مدلساً فإنه أثبت الناس في قتادة وشيوخه ثقافت. التقريب (٢٥٩/١) و (٢٨٩/١).

فقال له رسول الله ﷺ: فانطلق<sup>(١)</sup> فانطلق الرجل مع النبي ﷺ وأصحابه مسلماً، بعد أن دفن الشرك والأصنام بالبيداء، ورفرف مع شجاعته ونجدته في أجواء التوحيد الطاهرة الفسيحة، وواصل المسلمون سيرهم نحو القافلة، لكن مشكلة وقعت، وأمرًا خطيراً لم يحسب له المسلمون حساباً؟ لقد علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ. لكن كيف؟

## كيف علمت قريش بخروج

### رسول الله ﷺ

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها).

فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك. فحذر عن ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه.

فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة<sup>(٢)</sup> ووصل إليها، فسمعت قريش (صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمداً في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث.. الغوث)<sup>(٣)</sup>.

وتجمعت قريش حول هذا المشهد الفاجعة، وصرخت بوجه ضمضم بن عمرو تسأله عن تفاصيل أكثر، وثارت مكة وارتجت، وتعالى الضجيج، وسلت السيوف، ونسى

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١٨١٧).

(٢) رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٦-١٨٢ من طريقين: مرسل صحيح إلى عروة، والثاني عن ابن عباس وابن إسحاق لم يذكر أسماء شيوخه وهم جمع، ويشهد له ما بعده.

(٣) حديث حسن. مر معنا عند الحديث عن رؤيا عاتكة وهو جزء من حديث الرؤيا.

العباس شجاره مع أبي جهل، واحتقن الطواغيت.. طواغيت قريش كلهم.. كلهم إلا واحداً أذهله الخبر، فأصيب بالهلع.

إنه لا يدري ما يفعل، ولا كيف يتصرف؟ إنه يرتجف ويرتجف.. يهرول مسرعاً إلى منزله، وعندما يصل لا يبحث عن سلاح، ولا يفتش عن درع ورمح.. إنه خائف جداً، ويكاد يموت من الخوف.

لم يكن سبب ذلك الخوف تجارة له مع أبي سفيان يخشى أن يفقدها، ولم يكن خائفاً على سمعة قريش. الأمر أشد وأخطر.. إنه يحس بدنو أجله.. ويرى في كل شبر خارج مكة قبراً مشرعاً ينتظره. إنه أمية بن خلف، وهو لا يستطيع التفريق بين من يقول: الغوث.. الغوث، أو من يقول: الموت.. الموت..

كأنني به وهو يستمع إلى صراخ ضمضم يتذكر صراخ سعد بن معاذ في ذلك اليوم المشئوم، عندما كان سعد بن معاذ في نزاع مع أبي جهل، بعد أن رفض أبو جهل أن يطوف سعد بالكعبة وهو من أنصار محمد ﷺ، وعندما حاول أمية إسكات سعد بن معاذ رضي الله عنه.. بشره سعد بنهاية تصطك لها الركب.. بشره سعد بكارثة فقال له: (دعنا منك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك. قال أمية: بمكة؟ قال سعد: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري إلى ما قال لي سعد..؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة؟ فقال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة<sup>(١)</sup>.

واليوم هاهي قريش غاضبة وستخرج كلها، ولن يتخلف منها أحد، فهل سيتخلف سيد من ساداتها، وما عذره؟ هل سيقول: إني خائف؟ هل سيقول: إن محمداً صادق في قوله ووعدته؟ حائر أمية.. حائر.. يلتفت إلى امرأته يحدثها أنه قد (جاء الصريخ. قالت له امرأته: أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟

قال أمية: فإنني لا أخرج<sup>(٢)</sup>.

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٩٥٠) والبيهقي (٢٧-٣).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٢٦/٣).

إذا فقد قرر أمية البقاء في مكة وعدم الخروج، فلتذهب القافلة إلى الجحيم، ففي خروجه سفر إلى الموت على يد محمد وأصحابه. لكن هل سيتركه أبو جهل ينعم بالبقاء؟ لا أظن ذلك، فأبو جهل الآن كالمجنون.. يجول في شوارع مكة، كالثور الهائج يثير الغبار في أزقتها.. يطرق أبوابها. لن يتركه أبو جهل ينعم بالطعام والشراب والرقاد ليواجه الموت نيابة عنه، لقد (استتفر أبو جهل الناس فقال: أدركوا عيركم. فكره أمية أن يخرجها، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بغير بمكة. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزني. فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بغيره فلم يزل بذلك<sup>(١)</sup> كلما نزل منزلاً ربط بغيره السريع تاهباً للهرب والفرار.. لم يزل كذلك خائفاً، يرى الموت خلف الصخور وبين الشجر.. يرى الموت يسيل في الوادي.. يراه مقبلاً مع قطع السحاب الصيفية، وفي المساء يرى الظلام عباءة يرتديها الموت، والنجوم عيون تحديق به.

مضوا خلف أبي جهل مصطحبين المغنيات والخمر والموت، حتى وصلوا إلى أرض بين مكة والمدينة يقال إنها كانت (موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام)<sup>(٢)</sup> واسم هذه الأرض:

## بدر

وقد قرر أبو جهل ومن معه تحويل أرضها إلى ساحةٍ لاحتفالٍ صاخب، سيجعلون أرض بدر خمراً ونساءً، ورقصاً ومقابرٍ لمحمد وأصحاب محمد، سيجعل أبو جهل من تلك الأرض احتفالاً غير عادي.. احتفالاً لقريش وحدها.. في موعد هو الذي يحدده، وقد وصف الله عز وجل ذلك الخروج وتلك الغطرسة بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠).

(٢) تفسير الطبري (تفسير سورة الأنفال).